

رواية: من 9 إلى 11 سنة

عظيم من بلادي

تأليف وتصوير: سارة طراد



في أحد أيام "دمشق" الغابرة، حيث الدهاليز الصغيرة،
والبيوت المترابطة، تصاعد صوت صراخ من دار "عبد
السلام"، ذلك الرجل التقي الخلق الذي يُحبه كل الناس.

إنها امرأته، لم تعد تستطيع تحمّل الألم بعد
الآن، تكاد تتمنى الموت من شدة ما تمرّ
به، لكن رحمة الله وسِعَتها، فأنتهى ألمها
وحملت بين يديها مولودها الجديد،
"العزّ".



حدث ذلك في سنة 1181 م، غَمَرَت
الأسرة الفقيرة الفرحة بالمولود الجديد،
وأخذ الجميع يلاحظون عليه علامات
النبوغ والذكاء.



لم تكن حياة "العزّ" حياة مترفة على الإطلاق، فما أن كَبُرَ قليلاً حتى بدأ بمساعدة والده في إصلاح الطرق والتنظيف أمام محلات التجار. لكن وفاة والده في سنٍّ مُبَكِّرَةٍ، جعلته محل إشفاق عند البعض، ومحل سُخْرِيَةٍ وَتَهَكُّمٍ عند البعض الآخر.



صَعِبَ حَالُ الطِّفْلِ الْمُهَيَّبِ الْيَتِيمِ عَلَى الشَّيْخِ "فَخْرِ الدِّينِ بْنِ
عَسَاكِرٍ"، فَتَوَاسَطَ مَعَ إِدَارَةِ الْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ حَتَّى يُسْمَحَ لَهُ
بِمُسَاعَدَةِ عَمَالِ النِّظَافَةِ فِي الْجَامِعِ مَقَابِلَ أَجْرِ مَادِّي زَهِيدٍ.





لم يكن الجامع آنذاك مجرد
مكان يتقرب فيه الناس إلى
ربهم، ويقصدونه فقط للصلاة.
بل كانت تُعقد فيه حلقات العلم
للناس من كلِّ الأعمار، وتدور
فيه الأحاديث عن الأحوال
السياسية، وتُعقد فيه التجارة،
وتُحلّ فيه المشاكل. فكان
بمثابة المدرسة والجامعة
والبرلمان.

الشيخ فخر الدين: يا "عزّ"

العز بن عبد السلام: نعم يا شيخنا!

الشيخ فخر الدين: كيف وجدت العمل؟

العز بن عبد السلام: بفضل الله، هو عملٌ حلالٌ، ويكفيني سؤال الناس.

الشيخ فخر الدين: ألم يتعبك النوم على الرخام في زاوية المسجد؟

العز بن عبد السلام: وهل نومي على الحرير سوف يشفع لي عند ربي، أو يرفع درجاتي في الجنة؟ كل الناس سواسية ما دام حساب الله جارٍ على الجميع.



حسن (طفل في المسجد يتعلم القراءة والكتابة): أنت! أيها
اليتيم، ألم ترى أنّ كُرَّاسي وقع على الأرض، ناولني إياه.
العز: أحضره بنفسك، إلا إن كان وجود والدك في حياتك،
يجعلك بلا يد.

غضب حسن وقال: ماذا تظن نفسك!



خالد (صديق حسن): لا تُبالي به يا حسن، إنه ولدٌ مُتَّسَخٌ، ثيابه باليةٌ ،
ورفيقاه الوحيدان هما الممسحة ودلو الماء.

ضحك خالد وحسن، فنظر إليهما العز بكل شموخٍ وقال: مَمْسَحَةٌ تحفظ لي
أخلاقي أفضل لي من كُرَّاسٍ يجعلني بلا أخلاق.

**غضب خالد وحسن، لكنهما لم يستطيعا الرَّد عليه، فهما لم يمتلكا مثل ذكائه
وفطنته وعزة نفسه.**

بعد مرور فترة على عمل "العزّ" في الجامع، قال له الشيخ فخر الدين بن
عساكر: يا "عزّ" ألا تتمنى أن تجلس في حلقات العلم وتتعلم القراءة
والكتابة مثل باقي الصبيان؟

العز بن عبد السلام: أنا أتمنى ذلك، فلقد سمعتك تقول لتلاميذك حديث رسول
الله: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"، لكن ما أجنيه من عملي في
تنظيف المسجد لا يسمح لي بشراء كُرّاسٍ وأقلام.

الشيخ فخر الدين: لا تقلق، أنا سوف أشتري لك الكُرّاس، وسوف أسمح لك
بالدراسة مع الصبيان دون أن تدفع أجراً مادياً مثل الباقين.



تردد "العِزَّة" في قبول هذا العرض
كثيراً، فِعِزَّة نفسه لا تسمح له بقبول
نفقة من أحد، لكن إصرار الشيخ جعله
يوافق في النهاية.

الشيخ فخر الدين: خذ هذه النقود،
واشتري بها كُرَّاساً وأقلاماً وثوباً
جديداً نظيفاً يليق بطالب علمٍ.



تَدْرَج "العز بن عبد السلام" في طلب
العلم فاجتاز المراحل الدراسية بسرعة
قياسية، وتتلّمذ على يد أهم علماء
عصره، ونَهَلَ من شَتَّى أنواع العلوم
حتى أُقْبِبَ بـ "سلطان العلماء".



ثم أوصله ذكاؤه، وسِعة علمه، وقوة شخصيته، وحزمه، إلى تولّي منصب قاضي القضاة في "دولة مصر" وهو أهم قاضٍ في الدولة، والذي يتولّى أهم المسائل.

لم يكن "العز" يخشى إلا الله، ولا يخاف من إبداء رأيه بصدقٍ أمام أسوء الملوك وأكثرهم بطشاً وظُلماً. بل كان أيضاً يُحرّض الناس على الحُكّام الظالمين، مما جعله يتعرض للتهديد والسّجن عدّة مرّات، لكن هذا لم يدفعه لتغيير مواقفه السياسية أو التنازل عن أيٍّ من مبادئه.

وفي عام 1260 م إقتربت جيوش المَغول من مصر، وكان المَغول آنذاك أشخاصا شرسين للغاية، هوايتهم الوحيدة هي القتل والتدمير. لذلك كان لا بُدَّ لملك مصر من إعلان حالة الطوارئ، وعَقْدِ إجتماع سريع مع وزرائه وأمرائه.

العز بن عبد السلام: السلام عليك مولاي الملك.

ملك مصر: و عليك السلام أيها القاضي، تفضل!

إلتفت الملك إلى وزرائه وأمرائه وإلى قاضي القضاة "العز بن عبد السلام"

وقال: بإمكاننا أن نرى جميعا أن جيوش المَغول باتت قريبة من بلادنا،

وأصبح علينا تجهيز جيش يعيننا على مواجهتهم.

الوزير ناصر: مولاي، إن بلادنا فقيرة، من الصعب علينا أن نجد المال الكافي لتجهيز جيش يواجه خطر المغول إلا بفرض ضرائب على الناس. (الضرائب: قدرٌ من المال يؤخذ من كل فردٍ من أفراد الرعيّة)

**التفت ملك مصر إلى القاضي "العز بن عبد السلام"
وقال: ما قولك أيها القاضي؟**

**نظر "العز" إلى الوزراء والأمراء وقال بكل جرأة:
إنه لا يجوز فرض ضرائب إلا بعد أن يتساوى
الوزراء والأمراء مع عامة الناس في الممتلكات،
ويُجهز الجيش بأموال الأمراء والوزراء، فإن لم تكفِ
هذه الأموال جاز هنا فرض الضرائب على الشعب
بالقدر الذي يكفي لتجهيز الجيش، وليس أكثر من
ذلك.**



وأمر "العز بن عبد السلام" بانتزاع أموال الوزراء والأمراء بالقوة لتجهيز الجيش، حتى أصبحت أموالهم كأموال عامة الناس.



مرت الأيام و مرض "العز" واقتربت ساعة موته، طلب منه ملك مصر أن يُعَيِّنَ ولده في منصبه، لكنه رفض ذلك كي لا يصبح المنصب وراثه لأولاده وأحفاده، رغم أن ولده كان مؤهلا جدا لتولي المنصب.

توفي سلطان العلماء "العز بن عبد السلام" في 2 نيسان 1262 م بعد أن سجّل مواقف خلدتها التاريخ وجعلت له هبة في نفوس أقوى الملوك والأمراء.

Illustrations are taken from:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%A7%D8%B1%D8%B9_%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%AA%D9%82%D9%8A%D9%85

<https://www.arrabita.ma/blog/%D8%A2%D8%AF%D8%A7%D8%A8-%D9%85%D8%AC%D8%A7%D9%84%D8%B3-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D9%85-2/amp/>

<http://down1fast.blogspot.com/2018/05/interpretation-dream-vision-beggar.html>

<https://www.aljawab24.com/%D8%A3%D8%AF%D8%B9%D9%8A%D8%A9-%D9%88%D8%A3%D8%B0%D9%83%D8%A7%D8%B1/%D9%81%D8%B6%D9%84-%D9%85%D8%AC%D8%A7%D9%84%D8%B3-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D9%85/>

<https://www.aljawab24.com/%D8%A3%D8%AF%D8%B9%D9%8A%D8%A9-%D9%88%D8%A3%D8%B0%D9%83%D8%A7%D8%B1/%D9%81%D8%B6%D9%84-%D9%85%D8%AC%D8%A7%D9%84%D8%B3-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D9%85/>

<https://youtu.be/hoTJWRk3I9U>

https://youtube.com/playlist?list=PLS2VXtK8wm1KEX5dvY6fJ_sQ7_ZTFyGIA